

## حسان الزين\*

## سمير القنطار يروي قصة ث

ثلج ردة الفعل بدأت تكبر وتندرج. صرّت أفكر بالخطوة التالية التي ستقوم بها إسرائيل. وبقية استبعاد الحرب لكون إسرائيل غير مستعدة لها وحكومتها الحالية ليس فيها عسكريون، ومسألة الجنديين يمكن حلها بالتفاوض والتبادل، كما حصل مع عملية أسر الجنود الإسرائيليين الثلاثة، في تشرين الأول 2000. لكن ردة الفعل لا محالة ستحصل، وتوقعتها موضعياً، قصفاً هنا، واغتيالاً وخطفاً هناك.

إلى أن انتهى اجتماع الحكومة الإسرائيلية وأعلنت الحرب على لبنان وحزب الله في إطار «المواجهة الكبرى» لتحقيق هدفين: الأول ضربة مؤلمة لحزب الله والبنى التحتية اللبنانية في الساعات والأيام القريبة. والثاني إبعاد حزب الله عن الحدود بجهد عسكري ودبلوماسي على الصعيد الدولي. وأطلقت إسرائيل على حربها هذه تسمية «الجزء المناسب».

بدأت أجواء الحرب ترسيم، توجّست شراً، وكذلك السجناء الآخرون. كلهم عبّروا لي عن ذلك. تشاءموا. وتحذّروا عن حقد إسرائيل وممارساتها في فلسطين ولبنان. شخصياً، لم أخف. كنت مطمئناً، وقلت لا حكومة في العالم تأخذ قراراً بالحرب في ساعة أو ساعتين إلا تكون غافلة عن نتائج الحرب. لا حرب تتخذ بهذا النحو تحت ضغط التحريض الإعلامي. أقيت نظرة عبر باب الزنزانة على الممر لأعرف حركة الحراس. وانسحبت إلى سريري أحرس ما أفكر فيه وما سأقوم به. ورحت أنصت لأي حركة للشرطة في الممر. استلقيت كأنني نائم. أسهم ذلك في هدوء الزنزانة. وأخفت الأصوات من الخارج. اكتفيت بصوت خافت، همس، من الراديو، أسمع إذاعة النور. حافظت على هذا الوضع بعض الوقت، لأتأكد من حركة الشرطة. الدهم والتفتيش قد يحصلان في أي لحظة، خصوصاً في مثل هذه الظروف.

عند الحادية عشرة، سحبت الهاتف من مخبئه واتصلت بالمنسق بيني وبين السيد حسن نصر الله. دعوته إلى الحذر والتنبه.

رد مطمئناً: «لا يهّمك، الجميع محتاط وكل شيء تمام». لم أتم. بقيت ساهراً مع إذاعة النور. أسمع الأناشيد الحماسية والدينية. أقرأ القرآن وأدعو الله أن يحمي لبنان والمقاومة ويفك أسر كل معتقل. وتخلل هذه الأسمية أخبار عن الحرب وبيانات للمقاومة تعلن فيها تدميرها ثلاث دبابات وقصفها مرابض مدفعية إسرائيلية في الجولان السوري المحتل. سمعت تحية المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر محمد مهدي عاكف للمقاومة الإسلامية.

وسط انهماكي في متابعة الأخبار العسكرية الحربية فاجاني وليد جنابلاط. أوعز إلى المسؤولين في حزبه ومنطقة الجبل وجوب توفير الأمكنة اللازمة للعائلات النازحة من الجنوب والضاحية الجنوبية لبيروت. لم أستسج هذا الموقف الإنساني في ظاهره. فكّرت أنه للفصل بين المقاومة وجمهورها. فإنا لا نستطيع أن أنسى مواقف جنابلاط تجاه المقاومة و«سلاح الغدر»، بحسب تعبيره. وهو في الحلف المناهض للمقاومة. وسيدته السعودية حملت اليوم المقاومة «المسؤولية الكاملة» عن تصرفاتها «غير المسؤولة» ودعتها إلى إنهاء الأزمة التي أحدثتها، مطالبة بالترقية بين «المقاومة الشرعية والمغامرات غير المحسوبة».

حزّضني موقف جنابلاط هذا لأتصل بشقيقي بسام وأستوضح الأمر وأعرف ماذا يجري في الجبل. خطه مقل. قلت. عاودت الاتصال، فتكرّر الصوت الذي يعلن أن الرقم المطلوب خارج الخدمة.

... وأخيراً، بسام على السمع. ردّ. أخبرني أن خطه كان مقفلاً لأنه كان مشاركاً في برنامج «بالعربي» مع جيزيل خوري. لم أعرف ذلك لأن قناة «العربية» من ضمن القنوات التي قطع بثها إلينا أمس.

كما تأخر بسام في الرد عليّ، كذلك حصل معه في الحلقة، تأخر في الانضمام إليها لأسباب تتعلق بالحذر في الانتقال إلى الاستديو أثناء الحرب. قالت جيزيل إنني كنت أرسلها، والحقيقة أنني راسلتها مرة واحدة معزياً بزوجها سمي قصير. مهّدت بالتذكير بهذه الحالة الإنسانية لتصوّري لا أقبل بالحرب من أجل حريتي. كأنني أنا مقتنع بأن الحرب بسببي. وبدأت أسئلتها لبسام عن شعور عائلة

سؤالي عمّا يحصل جعلني أفرح وأظهر ذلك بقولي له:

- «شبابنا سحبوا لكم اثنين». وضحكت.

ردّ:

- «ماذا؟».

كزّرت:

- «شبابنا في المقاومة سحبوا لكم اثنين».

سأل:

- «من المقاومة؟».

قلت:

- «المقاومة الإسلامية، حزب الله في لبنان، سحب لكم جنديين، الآن، ليخرجني من هنا».

لم يصدق، لم يأخذ الموضوع جدياً. انسحب إلى مكاتب إدارة السجن. هناك عندهم محطة إخبارية مشفرة اسمها «YES»، قوية، تأتي بأخبار دقيقة. أعرف من اللحظة الأولى إنه سينسحب ليُشاهد تلك المحطة ويتأكد. لعلي حُرّضته ليفعل ذلك، وإذا لم يعد يتأكد لي الأمر، فيما يعود إذا لم يكن الخبر صحيحاً ويريد أن يغضبني وينفي ما قلته له.

وغاب.

صار الشباب، السجناء معي، يهتفونني ويقلونني علناً أمام الحراس الإسرائيليين، في الممر وفي الزنزانة.

لم يكبح الإسرائيليون هذه الفرحة عندما قطعوا بث المحطات العربية التي تصل إلينا. تركوا العربية فقط. فقط بث تلك القنوات يعني لنا أن أمراً ما خطيراً واستراتيجياً قد حصل ويريدون أن يمنعوا عنا أخباره.

لكن القناة «العاشرة» التي نشاهدها راحت تنقل عن قناة «المسار». نقلت بيان المقاومة وصوراً لي. سمعت أن اسم العملية إطلاق سراح سمي القنطار ورفاقه من السجن الإسرائيليين. ارتحت.

## تحميلي ذنب الحرب أشبه بتحميك إسرائيل الجنديين الأسيرين مسؤوليتها. لكن إسرائيل لا تفعل هذا

صوت شقيقي بسام وأمي عبر إذاعة «النور» جذبني إلى سريري لأسمع قرب الراديو. استلقيت كأنني في بيتنا، في عييه. أخذتني الإذاعة إلى اللفة القديمة، بعيدة. فرّح تلك الأصوات لفني.

الآن، وسط هذا اليوم التموزي، ثمة دفة وثمة هواء أتشقه. هواء جبلي مع نسيمات بحرية، وأصوات ووجوه كثيرة.

«شكراً سماحة السيد. شكراً أيها المقاومون الأبطال». رحّت أكرّر وأنا أنظر إلى سقف زنزانتني القريب من وجهي، وأرى السماء. كانت صافية، وزادها وضوحاً اعتراف الجيش الإسرائيلي بالعملية وأسّر الجنديين.

وما نفع أن يقطعوا عنا بث القنوات العربية، وما نفع أن يتجرّعون السم وينقلون المؤتمر الصحافي للسيد حسن نصر الله، ويترجمونه مباشرة إلى العبرية، بل توجه إليّ وإلى رفاقي السجناء. صوته وهو يحدثني سمعته يخترق السجن وإسرائيل كلها. قال:

«إنكم أصبحتم عند خط الحرية. هذا يوم سمي القنطار ويحيى سكاف ونسيم نسر». واختصر اسم العملية (إطلاق سراح سمي القنطار ورفاقه من السجن الإسرائيليين) في كلمتين: الوعد الصادق.

استفزهم السيد. جنّهم.

أثرت في هذه اللحظة متابعة برنامج «مساء جديد» مع مقدّمه البارز في إسرائيل دان مرغريت، على القناة «الأولى». أحسست أنه يوضح توجهات الرأي العام. فقد استضاف أشخاصاً منفعلين راحوا يحرضون الحكومة على الحرب، والتفقوا على أنه إذا لم نقم بحرب من أجل الجنديين يجب أن نقوم بها ردّاً على كلام حسن نصر الله:

«إذا أردتم حرباً فسنذهب إلى النهاية، وإذا أتى العالم كله فلن يأخذ الجنديين من دون إطلاق سراح سمي القنطار ورفاقه».

وتقرّر أن تجتمع الحكومة الإسرائيلية عند الثامنة مساءً. سيطر عليّ الحذر والترقب. كرة

جميعنا، من يتفق مع سمي القنطار ومن يختلف معه، لا يعرف

قصته، فقائد عملية جمال عبد الناصر في نهاريا، وقع فتى في السادسة

عشرة من العمر في أسر الصورة التي صاغتها الآلة الدعائية الاستخبارية

الإسرائيلية. كتاب «سمير القنطار: قصتي» لحسان الزين، الصادر قريباً عن دار

الساقى، يحاول تقديم رواية عميد الأسرى العرب في السجن الإسرائيلية، منذ

ودّعه أبو العباس حتى استقبله حسن نصر الله، وما بين هاتين المحطتين

حكايات وأسرار كثيرة وتفاصيل حياة يُستغرب أن تلتقي خيوطها

وتتكثف خلف القضبان. هنا أجزاء من الفصل الأول

سجن هداريم، 12 تموز/يوليو 2006.

استيقظت باكراً قبل بدء جولة العذ اليومية. ذهني صاف وكانه لا كوكب ولا شيء فيه. قمت بحركاتي الآلية الصباحية. نزلت من سريري الموجود كطبقة ثانية فوق سرير زميلي

في الزنزانة، محمد أبو جاموس. أحب أن يكون سريري عالياً كأنه طائر مرتفع عن أرض الزنزانة والسجن. يتيح لي ذلك توفير عالم خاص بي. أفكر بهدوء وأقرأ وأستمع إلى الراديو وأشاهد التلفزيون.

شربت أغسل وجهي وأسنانتي فوق المغسلة المكشوفة قرب الحمام في الزنزانة. اقترب مني أبو جاموس ليخبرني أنه مكتوب، في شريط الأخبار على التلفزيون، أن ثمة اشتباكات على الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة. لم أجد أو أعط معي. سمعت ولم أقل كلمة أو أظهر أي ردة فعل. قلت في نفسي إنها عملية في مزارع شبعنا رداً على ما يحصل في قطاع غزة. فالوضع هناك صعب، وإسرائيل تقوم بأعمال انتقامية منذ أسر الجندي جلعاد شاليط قبل 19 يوماً (في 25 حزيران/يونيو 2006). والمقاومة الإسلامية في لبنان تتضامن مع الفلسطينيين وربما تقوم بعمل عسكري لتخفيف الضغط عنهم وتشتيت الجبهة الإسرائيلية.

جلست على كرسي صغير في زنزانتني أحسني قهوتي، وأتابع التلفزيون. لا جديد على ما قاله أبو جاموس. بعد قليل وصلني مرسال من رفيق لي في السجن، عبد الناصر عيسى، من قيادة «حماس»، نزيل زنزانة مجاورة، يخبرني أنه سمع بتنفيذ حزب الله عملية أسر.

كهرباء عبرت جسدي، كما لو أنني استيقظت الآن لا قبل ساعات. نقلت محطة التلفزيون إلى القناة الإسرائيلية «العاشرة». وجدت في أسفل الشاشة عبارة: «اشتباكات على طول الحدود اللبنانية، ويبدو أن حزب الله يخطط للقيام بامر ما». جملة ملغزة ملغومة كالعادة، تقول ولا تقول الحقيقة كاملة. بدأ الفار يلعب في عيني. انتقلت، لأجمع الخبر، إلى القناة الإسرائيلية «الثانية». الأمر نفسه: «اشتباكات على طول الحدود مع لبنان ويبدو أن حزب الله يريد أن يقوم بعمل ما». هنا أيضاً جملة ناقصة.

شعرت بأنني تخفي أكثر مما تبوح، وفي الوقت نفسه تمهد لقول أمور أخرى وإبراز أجزاء من البازل. تفأول خافت لم أقمعه بل رحّت أبحث عن خبر يغذيه أو يطابقه ويترجمه. وزاد من شعوري هذا تفسيري لعبارة «يبدو أن حزب الله يخطط لأمور ما». هل من أحد يكتب في الأخبار مثل هذا؟ هذا يعني أن أمراً ما قد حصل وإسرائيل تمهد لإعلانه، لكن القرار في صده لم يؤخذ بعد. فالتقليد في إسرائيل يفرض على

## الزخبار

تأسست عام 1953

تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير: الموسس

جوزف سماحة

(2007-2006)

مستشار مجلس التحرير

انسجي الحاج

مدير التحرير خالد صاعية ■ سكرتير التحرير حسان الزين ■ مجلس التحرير عريبات حوليات إيلي شلموب، نفاضة بيار ابي صعب، منجم ضحى شمس، رياضة علي صفا، عدل عمر نشابة، اقتصاد محمد زبيب

المدير الفني اميل منعم

رئيس مجلس الإدارة والمدير المسؤول ابراهيم المين ■ المكاتب بيروت - فزاد - شارع دونات - سنتر كونكورد - الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب. 5963/113 ■ www.al-akhbar.com

الاعلانات Tree Ad 01/61115 03/252224

التوزيع شركة اللواك 15-01/666314 03/828381